المصطلحات الصوفية: التلوين والتمكين أنموذجا

عبد الرحيم العوامي

جامعة ابن طفيل بالقنيطرة/ المملكة المغربية

الملخص:

يتناول هذه البحث المعنون بـ: المصطلحات الصوفية: التلوين والتمكين أنموذجا" مصطلحي "التلوين" و"التمكين" باعتبارهما من المصطلحات الصوفية التي تكتسي دلالة خاصة في عرف أهل التصوف، وذلك من خلال التأصيل لهما من كتب اللغة ومن القرآن الكريم، وتتبع مدلولها في كتب الصوفية وفي المعاجم التي تعرف بمصطلحات الفنون وحدودها، مع إبراز الفروق الدقيقة بينهما، وبيان حال الصوفي في التحلي بهما ... ومن شأن هذا البحث أن يقرب الباحث من كتب التصوف ويمكنه من بعض الأدوات الأساسية للاستفادة منها والنهل من معينها.

Abstrait:

Cette recherche intitulée "Les termes mystiques" traite "Talwin" et "Tamkin", deux prototypes des deux termes "Talwin" et "Tamkin" en les considérant parmi les termes mystiques qui revêtent une signification particulière dans les coutumes des souphis. Ceci est à travers leur authentification d'après les livres de la langue et le

Qoran, et la poursuite de leur signification dans les livres mystiques et dans les dictionnaires connus de termes des arts et ses limites, et souligner les disparités précises entre eux, en indiquant l'état du souphi d'en faire preuve. Cette recherche pourrait rapprocher le chercheur des livres mystiques et lui permettre des outils basiques pour en bénéficier.

تمهيد:

إن البحث في أي علم من العلوم يتطلب الإحاطة بأعلامه وكتبه ومصطلحاته؛ لأنها مفتاح النظر في مسائله والإبداع في قضاياه، والبحث في التراث الصوفي هو الآخر يستلزم من الباحث الإلمام بمصطلحات الصوفية والدلالات العميقة لألفاظهم، ذلك أن مصطلحات الصوفية تتنوع مدلولات كل واحد منها بحسب المقامات والمنازل، أو قل بحسب السياقات المتنوعة هي من الكثرة بحيث تعد ظاهرة ينفرد بها المصطلح عند الصوفية، وهو ما لا يحدث في مصطلحات العلوم أو الفنون الأخرى إلا في حالات قليلة.

ولما كان المصطلح الصوفي لا يدرك معناه المحدد إلا من له ثقافة صوفية واسعة، فقد عُني كثير من الصوفية ببيان مصطلحاتهم والإعراب عن معاني مدلولاتها، وفك رموزها والكشف عن كنوزها، فقدموا مادة مهمة استفادت منها المعاجم التي تعرف بمصطلحات العلوم وحدودها عامة ومعاجم المصطلحات الصوفية وموسوعاتها على وجه الخصوص، غير أن الباحث لا يجدها منظومة في سلك واحد، وإنما يلفيها متناثرة تحتاج إلى من يرتب مادتها ويلم شتاتها ليبرز الفرق بينها وبين شبيهاتها.

ويأتي هذا البحث في هذا الصدد ليعرف بمصطلحين من المصلحات الصوفية، وهما التلوين والتمكين؛ من خلال التأصيل لهما من كتب اللغة ومن القرآن الكريم، وتتبع مدلول هذين المصطلحين في كتب الصوفية والمعاجم التي تعرف بمصطلحات الفنون وحدودها ونظم عناصرها؛ وذلك من خلال المباحث الآتية

المبحث الأول: مفهوم التلوين والتمكين في اللغة والقرآن الكريم.

المبحث الثاني: مصطلح التلوين عند الصوفية

المبحث الثالث: مصطلح التمكين عند الصوفية.

المبحث الرابع: الفرق بين التلوين والتمكين والمقارنة بينهما.

المبحث الخامس: أشعار في مدح أرباب التلوين والتمكين.

المبحث الأول: مفهوم التلوين والتمكين في اللغة والقرآن الكريم:

1/ تعريف التلوين في كتب اللغة والقرآن الكريم:

أ/ التعريف اللغوي للفظ التلوين :

التلوين مصدر من لون يلون لونا وتلوينا، واللون: هيئة كالسواد والحمرة، وفلان متلون أي لا يثبت على خلق واحد فالتلوين هو التغير والتبدل(1). ولون كل شيء: ما فصل بينه وبين غيره ... والألوان: الضروب، واللون: النوع وفلان متلون إذا كان لا يثبت على خلق واحد[2]، فالتلون: اختلاف الأخلاق[3].

ب/ المعنى القرآني للفظ التلوين:

ورد الأصل اللغوي للتلوين في القرآن الكريم الذي هو ((اللون)) بالمعاني اللغوية السابقة؛ قال الراغب اللَّوْنُ معروف، وينطوي على الأبيض والأسود وما يركّب منهما، ويقال: تَلَوَّنَ: إذا اكتسى لونا غير اللّون الذي كان له. قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها﴾ [فاطر: 27]، وقوله: ﴿وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وألوَانِكُمْ﴾ [الروم: 22] إشارة إلى أنواع الألوان واختلاف الصّور التي يختصّ كلّ واحد بهيئة غير هيئة صاحبه، وسحناء غير سحنائه مع كثرة عددهم، وذلك تنبيه على سعة قدرته. ويعبّر بِالْأَلْوَانِ عن الأجناس والأنواع. يقال: فلان أتى بالألوان من الأحاديث، وتناول كذا ألوانا من الطّعام[4].

---

(1) الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1415هـ/ 1995م، مادة ل و ن، ص 609.

(2) ابن منظور، لسان العرب، الطبعة: الثالثة دار صادر، بيروت، 1414 هـ، مادة ل و ن.

(3) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1410هـ/ 1990م، ص 108.

(4) الراغب، مفردات القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار العلم الدار الشامية، دمشق: 1412 هـ، ص 759.

وقد لخص المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم الأصل الاشتقاقي لهذا اللفظ في أن اللَون يفيد السواد وغيره "، إذ هو بُقَع تعرو الجلد (كأنها ناشئة عن الباطن)، ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ [النحل: 13]. وكل ما في القرآن من واوي العين هذا فهو اللون وجمعه الألوان بمعناه المذكور الصبغ الذي تبدو به مادة الشيء من صفرة أو حمرة[5].

2/ تعريف التمكين في كتب اللغة والقرآن الكريم.

أ/ التعريف اللغوي للفظ التمكين :

التميكن لغة من مكنه الله من الشيء تمكينا وأمكنه منه ... واستمكن الرجل من الشيء، وتمكن منه بمعنى، وفلان لا يمكنه النهوض أي لا يقدر عليه، والتمكين: القدرة والضبط والثبات[6].

ويميز أهل اللغة بين التمكين والإقدار، يقول أبو هلال العسكري:" الفرق بين التمكين والاقدار: أن التمكين إعطاء ما يصح به الفعل كائنا ما كان من الآلات والعدد والقوى، والاقدار إعطاء القدرة وذلك أن الذي له قدرة على الكتابة تتعذر عليه إذا لم يكن له آلة للكتابة ويتمكن منها إذا حضرت الآلة، والقدرة ضد العجز، والتمكن ضد التعذر"[7].

ب/ المعنى القرآني للفظ التمكين:

يدور المعنى المحوري لمادة مكن في القرآن الكريم على رسوخ الشيء متجمعًا في باطن يلتئم عليه... ومنه "المَكِنَة- كفَرِحة: التمكُّن (رسوخٌ في باطن) "مكّنه من الشيء، ومكّن له: جعل له عليه سلطانا، وقدّره " قال تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 6]، التمكين من الشيء (إنالة) ما يصح به الفعل من الآلات والقُوَى، وهو أتمُّ من الإقدار، لأن الإقدار إعطاء القدرة خاصة والقادر على الشيء قد يتعذر عليه الفعل لعدم الآلة. قال تعالى أيضا: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: 71] أي مكّن منهم المسلمين وجعلهم أسرى في أيديهم، والمكانة: التُؤدَة. وقد تَمكَّن، ومَرّ على مَكِينَته أي على تُؤَدته "- فذلك من الرسوخ والثبات أو من الثقل اللازم لتجمع أشياء راسخة في الباطن. ومنه "المَكانة (بمعنى

---

(5) محمد حسن حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (مؤصَّل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها)، مكتبة الآداب، القاهرة الطبعة: الأولى، 2010 م، ج4، 2004.

(6) الرازي، مختار الصحاح، مادة م ك ن، ص 630.

(7) أبو هلال العسكري، الفروق، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليمان، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ج1، ص 142.

الرسوخ في أثناء الشيء، وهذا يعطي المعرفة به، والثباتُ يعطي القدرة أيضًا قال تعالى: (قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ) [الأنعام: 135، الزمر: 39 وكذا ما في هود: 93، 121]، أي على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم[8].

المبحث الثاني: مصطلح التلوين عند الصوفية:

تشير كتب التعريف بمصطلحات العلوم والفنون الإسلامية إلى أن التلوين يدل على معاني التجدد والتغير كما هو مستفاد من المعنى اللغوي الذي سقناه آنفا، فقد عرف الجرجاني التلوين بقوله: "هو مقام الطلب والفحص عن طريق الاستقامة"[9]. ولاشك أن هذا الطلب والفحص يستلزم تغيرا في الجهد وتدرجا في الارتقاء به لينتقل الصوفي من حال إلى حال، وهذا ما عبر عنه السيوطي رحمه في تحديده لحد التلوين بأنه الارتقاء، والتدرج من حال إِلَى حال مُخْتَلفَة[10].

وبيان هذا الانتقال والتردد بين الأحوال والمقامات يجليه الشيخ ابن عجيبة في معراج التشوف إلى حقائق التصوف بقوله: " التلوين هو الانتقال من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام، وقد يسقط ويقوم (أي السالك)، فإذا وصل إلى صريح العرفان وتمكن من الشهود، فصاحب تمكين، فصاحب التلوين أبدا في زيادة، وصاحب التمكين وصل وتمكن، فانتهاء سيرهم الظفر بنفوسهم، فإن ظفروا بها، فقد وصلوا فانخنست أوصاف البشرية واستولى عليها سلطان الحقيقة، فإن دام ذلك للعبد فهو صاحب تمكين، وقد يكون التلوين بعد التمكين، ومعناه: النزول في المقامات كنزول الشمس في برجها، فيتلون العارف مع المقادير، ويدور معها حيث دارت، ويتلون بتلون الوقت، فيكون بين قبض وبسط، وقوة وضعف، ومنع وعطاء وسرور وحزن، وغير ذلك من متقلبات الأحوال غير أنه مالك غير مملوك، لا يتغير بتغير الأحوال ولا يتأثر بالزلزال والأهوال والله أعلم"[11].

---

(8) محمد حسن حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (مؤصَّل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها)، مكتبة الآداب – القاهرة الطبعة: الأولى، 2010 م. ج4، ص 2104.

(9) الجرجاني، التعريفات، ضبطه وصححه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، 1403هـ/ 1983م، ص 65.

(10) السيوطي، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، تحقيق: محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، الطبعة: الأولى، 1424هـ / 2004 م، مصطلح رقم 1810، ص 214.

(11) ابن عجيبة، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، تحقيق: عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، ص 70.

وقد أشار القشيري في رسالته إلى أن التغير أو التلوين يحصل للعبد لسببين: قال رحمه الله:"واعلم أن التغير بما يرد على العبد يكون لأحد أمرين: إما لقوة الوارد أو لضعف صاحبه، والسكون من صاحبه لأحد أمرين: إما لقوته أو لضعف الوارد عليه"[12].

وفي إفادة معنى التغير الدال على بلوغ الحقيقة، قال السراج الطوسي في اللمع " التلوين معناه: تلون العبد في أحواله، قال قوم: علامة الحقيقة التلوين؛ لأن التلوين ظهور قدرة القادر ويكتسب منه الغيرة؛ ومعنى التلوين: معنى التغيير. فمن أشار إلى تلوين القلوب والأسرار الخالصة لله تعالى في مشاهدتها، وما يرد عليها من التعظيم والهيبة، وغير ذلك من تلوين الواردات فقال: علامة الحقيقة التلوين؛ لأنهم في كل سير مع الله تعالى في زيادة من تلوين الواردات على أسرارهم وأما تلوين الصفات فهو كما قال القائل:

كل يوم تتلون غير هذا بك أجمل

قال الواسطي رحمه الله: من تخلق بخلقه لم تقع به طوارق التلوين في طبعه ولبعضهم هذان البيتان في صفة المُسَيرين:

زجرت فؤادي فلم ينزجر ويطلب شيئا ومنه يفر

يسير إلى الحق مستظهرا وإني عليه شفيق حذر[13].

والذي يظهر من هذا القول أن التلوين له محلان أو علامتان: تلوين واردات الأسرار بما ينكشف لأولياء الله وأصفيائه من حجب وأسرار، وتلوين الصفات بما يعرض لهم من تغير وتبدل وهو بصدد تزكية نفوسهم وترويضها للسير نحو طريق الحق الذي يتطلب الانتقال من حال إلى حال، والتحول من وصف إلى وصف، والترقي من مقام إلى مقام، وهذا كله وصف من هو في الطريق لم يصل إلى الآن، فما دام في الطريق فهو متلون فإذا وصل المنزل فهو متمكن[14].

---

(12) القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، ج1، ص 191.

(13) السراج الطوسي، اللمع، حققه وقدم له، وخرج أحاديثه عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر، 1380هـ/ 1960م، ص 143.

(14) عز الدين المقدسي، حل الرموز ومفاتيح الكنوز في شرح بعض المصطلحات والمفاهيم الصوفية المبهمة، تحقيق: محمد بوخنيفي، لبنان، دار الكتب العلمية، 2011، ص 105.

وعلى الرغم من ذلك، فإن أكثر الصوفية على أن التلوين مقام ناقص خلافا لطريقة الطريقة الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي الذي اعتبره من أكمل المقامات، قال القاشاني معربا عن ذلك :"التلوين: هو الاحتجاب عن أحكام حال، أو مقام سني بآثار حال أو مقام دني وعدمه على التعاقب، وآخره التلوين في مقام تجلي الجميع بالتجليات الأسمائية في حال البقاء بعد الفناء، وإنما قال الشيخ محي الدين قدس الله سره: إنه عندنا أكمل المقامات، وعند الأكثرين ناقص لأنه أراد بالتلوين الفرق بعد الجمع، إذا لم يكن كثرة الفرق حاجبة عن وحدة الجمع، هو مقام أحدية الفرق في الجمع، وانكشاف حقيقة معنى قوله: كل يوم هو في شأن، ولا شك أنه أعلى المقامات، وعند هذه الطائفة ذلك نهاية التمكن، وأما التلوين الذي هو آخر التلوينات فهو عند مبادئ الفرق بعد الجمع حيث يحتجب الموحد بظهور آثار الكثرة عن حكم الوحدة"[15].

فإذا كان السابقون لابن عربي يرون أن التلوين نقص في حق المتلون لأنه مجرد مقام لطلب طريق الاستقامة في مقابل التمكين الذي يفيد الثبات على الاستقامة، ولأنه صفة أرباب الأحوال في مقابل التمكين (صفة أهل التحقيق)، وصاحب التلوين: يترقى من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف في مقابل صاحب التمكين الذي (وَصَلَ واتَصَل)[16]. فإن ابن عربي يعتبر أن «التلوين: تنقل العبد في أحواله، وهو عند الاكثرين مقام ناقص، وعندنا هو أكمل المقامات، وحال العبد فيه حال قوله تعالى: (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) (الرحمن: 29)، قال في الفتوحات :" فإن قال بعضهم علامة الحقيقة رفع التلوين بظهور الاستقامة فلو لم يزد بظهور الاستقامة لكان قد نبه على علم بعض محقق فلما زاد هذه اللفظة أفسد الأمر والتحق في حده القائلين بنقصه"[17].

وعلى هذا المذهب صار بعض المتأخرين في القول بأن التلوين علامة على صاحبه بأنه متحقق محقق كامل إلهي، قال الجيلي في شرح الأسفار عن رسالة الأنوار: "وهو الذي أرتضيه وهو مذهبي وبه أقول وعلى قدر تمكنه في التلوين يكون كماله، وأن التلوين نعت إلهي كمال إذ لا يتصور في ذلك الجناب

(15) القاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، تحقق وتقديم وتعليق عبد العالي شاهين، دار المنار، الطبعة الأولى، 1413هـ، 1992م، ص 174،175. وانظر أيضا: النقشبندي، جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم وكلمات الصوفية، مصر، المطبعة الوهبية، 1298هـ، ص 79.

(16) انظر تلخيص آراء السابقين لابن عربي في: سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، الحكمة في حدود الكلمة، دار ندرة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1401هـ/ 1981م، ص 1006، 1007.

(17) ابن العربي، الفتوحات المكية،4 مج، مصر، دار الكتب العربية الكبرى، 1329هـ، ج2، ص 499.

نقص أصلا بوجه ولا نسبة ولا تكمل المقامات والأمور إلا أن يكون من النعوت الإلهية، فإن الكمال لله على الإطلاق"[18].

ويرى القاشاني: أن الخلاف لا يعدو أن يكون ظاهريا وأن مرده إلا الاختلاف في النظر، قال رحمه الله: "والظاهر أن لا مصادمة بين الاعتبارين"[19].

المبحث الثالث: مصطلح التمكين عند الصوفية:

إذا كان المعنى اللغوي والقرآني لمصطلح التمكين يدل على القدرة والضبط والثبات والرسوخ فإن هذا المعنى نجده في المدلول الاصطلاحي لهذا اللفظ عند الصوفية، ومن عني بوضع حدود ألفاظهم، فقد عرف الجرجاني التمكين بقوله: "هو مقام الرسوخ والاستقرار على الاستقامة، وما دام العبد في الطريق فهو صاحب تمكين؛ لأنه يرتقي من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف، فإذا وصل واتصل فقد حصل التمكين"[20]. وعرفه السيوطي بقوله: "التمكين دوام استِيلاء سُلطان الحقيقةِ"[21].

وقد بين الهجويري في كشف المحبوب أن التمكين أحد الطرق والمقامات الدالة على الله، وأنه بمجيء النبي صلى الله عليه وسلم ظهر التمكين للمتمكنين؛ قال رحمه الله: "اعلم أن طريق الله على ثلاثة أقسام: الأول: المقام، والثاني: الحال، والثالث: التمكين، وقد أرسل الله عز وجل جميع الأنبياء لبيان طريقته، ليبينوا حكم المقامات، وجميع الأنبياء جاءوا بمئة وأربعة وعشرين ألف مقام أو أكثر، وبمجيء محمد عليه السلام ظهر لأهل كل مقام حال واتصل به، بحيث ينقطع كسب الخلق عنه، حتى تم الدين على الخلق، وبلغت النعمة غايتها، لقوله تعالى: (اليوم أكلمت لكم دينكم وأتممت عليكم

---

(18) الجيلي عبد الكريم، شرح الأسفار عن رسالة الأنوار، طبع ونشر شيخ القادرية، محمد رجب، مشق، مطبعة الفيحاء، 1348هـ، ص 272، وانظر أيضا: رفيق العجم، موسوعات مصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، 1999م، ص 200.

(19) القاشاني، رشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق والأحوال، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، ص 236.

(20) الجرجاني، التعريفات، ص 66، 67.

(21) السيوطي، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، ص 214.

نعمتي)، وعندئذ ظهر تمكين المتمكنين، وإذا أردت أن أحصي الأحوال جميعا واشرح المقامات لعجزت عن المراد"[22].

وعرف الهجويري التمكين بأنه: "فهو عبارة عن إقامة المحققين في محل الكمال والدرجة العليا، فيمكن لأهل المقامات العبور من المقامات، والعبور من درجة التمكين محال، لأن الأول درجة المتبدئين، والثاني مستقر المنتهين، ويكون العبور من البداية إلى النهاية ولا وجه لتجاوز النهاية، لأن المقامات منازل الطريق والتمكين قرار الحضرة، وأحباء الحق يكونون في الطريق عارية، وفي المنازل غرباء وأسرارهم في الحضرة، والآلة في الحضرة آفة والأدوات غيبة وعلة.."[23].

وعرفه في موضع آخر بكونه رفعا للتلوين، حيث نقل عن أحد المشايخ قوله:"التمكين رفع التلوين والتلوين أيضا من عبارات هذه الطائفة مثل الحال والمقام، وهي قريبة من بعضها في المعنى، ومرادهم من التلوين التغير من حال إلى حال. والمراد من ذلك أن لا يكون المتمكن مترددا، ويكون قد حمل متاعه جملة إلى الحضرة، ومحا من قلبه التفكير في الغير، فلا تجري عليه معاملة لتبدل حكم ظاهره، ولا يلزمه حال يغير حكم باطنه، مثلما كان موسى صلوات الله عليه متلونا، فما إن نظر إلى الحق تعالى نظرة إلى طور التجلي حتى ذهب وعيه"[24].

ومن الأدلة على جواز دوام التمكين ما يروي عن أبي علي الدقاق، قال القشيري: "سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: أصول القوم في جواز دوام التمكين تتخرج على وجهين أحدهما: لا سبيل إليه؛ لأنه قال صلى الله عليه وسلم: "لو بقيتم على ما كنتم عليه عندي لصافحتكم الملائكة"[25]. ولأنه صلى الله عليه وسلم، قال: "لي وقت لا يسعني فيه غير ربي عز وجل" أخبر عن وقت مخصوص، قال رحمه الله تعالى والوجه الثاني: أنه يصح دوام الأحوال، لأن أهل الحقائق ارتقوا عن وصف التأثر بالطوارق والذي في الخبر أنه قال: لصافحتكم الملائكة فلم يعلق الأمر فيه على أمر مستحيل، ومصافحة الملائكة دون ما أثبت لأهل البداية من قوله صلى الله عليه وسلم:"إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب

---

(22) الهجويري، كشف المحجوب، دراسة وترجمة وتعليق: إسعاد عبد الهادي قنديل، مراجعة الترجمة: عبد المجيد بدوي، مراجعة وتقديم: بديع جمعة، القاهرة المجلس الأعلى للثقافة، 1394هـ/ 1974م، ج 2، ص 617.

(23) نفسه.

(24) نفسه، ج2، ص 617، 618.

(25) أخرجه مسلم، باب فضل دوام الذكر والفكر، رقم ح: 7142، ج 8، ص 94.

العلم رضا بما يصنع"[26] ، وما قال: لي وقت قائما، قال على حسب فهم السامع، وفي جميع أحواله كان قائما بالحقيقة..."[27].

أما التمكين عند الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي فهو مخصوص بالتلوين، قال قدرس الله سره: التمكين عندنا هو التمكين في التلوين وقيل حال أهل الوصول[28].

ويستعمل ابن عربي لفظ: «المتمكن من أهل الله» بمعنى العارف الواصل، في مقابل: المبتدئ يقول قدس الله سره: "ويأتي الشيطان العارفين بالواجبات فلا يزال بهم حتى ينووا، مع الله، فعل أمر ما من الطاعات... وعزم... وما بقي إلا الفعل، أقام له (الشيطان) عبادة أخرى أفضل منها شرعا. فيرى العارف أن يقطع زمانه بالأولى، فيترك الأول، ويشرع في الثاني. فيفرح إبليس حيث جعله ينقض عهد الله بعد ميثاقه. والعارف لا خبر له بذلك. فلو عرف، من أول، أن ذلك من الشيطان، عرف كيف يرده، وكيف يأخذه: كما فعل عيسى عليه السلام وكل متمكن من أهل الله[29].

وقد وصف صاحب قوت القلوب بلوغ سيدنا محمد وموسى عليهما السلام مقام التمكين في قوله: "(وقال موسى عليه السلام ربّ أرني أنظر إليك) أي في محل العبودية، وقال لمحمد عليه السلام: (ما زاغ البصر وما طغى، فكان قاب قوسين أو أدنى)؛ أي مكان الربوبية، فبين المحبّ والمحبوب في التقليب، كما بين موسى ومحمد عليهما السلام في التقريب، كما بين من رأى ما رأى عند نفسه في مكانه وبين من رأى ربّه في علوه، كما بين من عجل إليه شوقاً منه ليرضى عنه وبين من عجل به شوقاً إليه ليرضاه إليه لرضاه عنه، كما بين من رأى ما رأى فلم يثبت، ففاضت عليه الأنوار لضيقه، وبين من رأى ما رأى فثبت له وغاضت فيه الأنوار لسعته، فقد جاوز المحبوب مقام المحبّ في التمكين، كما جاوز محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقام موسى عليه السلام في المكان أدخل بينه وبين موسى لام الملك وأقام محمداً مقامه في الملك"[30].

(26) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، رقم ح: 3641، ج 3، ص 317، والترمذي، باب ما جاء في فضل الفقه، رقم ح: 9828، ج 10، ص 204.

(27) الرسالة القشيرية، ص 191.

(28) سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، ص 1006.

(29) نفسه، 1006، 1007.

(30) أبو طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الثانية، 1426 هـ/ 2005 م، ج 2، ص108.

المبحث الرابع: الفرق بين التلوين والتمكين والمقارنة بينهما:

لبيان وجه الفرق بين هذا المصطلحين نشرع في البداية ببيان وجه تسميتهما:

فإذا كان التلوين كما سبق هو مقام الطلب والفحص عن طريق الاستقامة، وهو الصراط المستقيم، والتمكين هو مقام الاستقامة والثبات على الصراط المستقيم، فإن أرباب التلوين سموا بذلك لتلونهم وتبدل صفاتهم البشرية في طلب الصرط المستقيم بخلاف أرباب التمكين فإنهم ثابتون مستقرون على استقامتهم، فالتلوين صفة ارباب الأحوال والتمكين صفة أهل الحقائق. فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين لأنه يرتقي من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف، فإذا وصل تمكن، فصاحب التلوين أبدا في الزيادة وصاحب التمكين وصل واتصل[31].

قال القشيري: "فالعبد ما دام في الترقي فهو صاحب تلوين يصح في نعته الزيادة في الأحوال والنقصان منها فإذا وصل إلى الحق بانخناس أحكام البشرية مكنه الحق سبحانه في كل نفس فلا حد لمقدوراته، فهو في الزيادات متلون بل ملون وفي أصل حاله متمكن فأبدا يتمكن في حالة أعلى مما كان فيها قبله ثم يرتقي عنها إلى ما فوق ذلك إذ لا غاية لمقدورات الحق سبحانه في كل جنس..."[32].

والتلوين مختص بأرباب القلوب أما التمكين فأربابه قد خرجوا من حجب القلوب، وباشرت أرواحهم أنوار الذات فسقطت عنهم أسباب الحوادث والمتغيرات، قال السهروردي: "فالتلوين لأرباب القلوب لأنهم تحت حجب القلوب، وللقلوب تخلص إلى الصفات، وللصفات تعدد بتعدد جهاتها، فظهر لأرباب القلوب بحسب تعدد الصفات تلوينات، ولا تجاوز للقلوب وأربابها عن عالم الصفات. وأما أرباب التمكين فخرجوا عن مشائم الأحوال، وخرجوا عن حجب القلوب وباشرت أرواحهم سطوع نور الذات، فارتفع التلوين لعدم التغير في الذات، إذ جلت ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات؛ فلما خلصوا إلى مواطن القرب من أنصبة تجلي الذات ارتفع عنهم التلوين؛ فالتلوين حينئذ يكون في نفوسهم لأنها في محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها، والتلوين الواقع في النفوس لا يخرج صاحبه عن حالة التمكين؛ لأن جريان التلوين في النفس لبقاء رسم الإنسانية، وثبوت القدم في التمكين كشف حق الحقيقة، وليس المعنى بالتمكين؛ أن لا يكون للعبد تغير فإنه بشر، وإنما المعنى به : أن ما كوشف بها من الحقيقة لا يتوارى عنه أبدا ولا يتناقض بل يزيد، وصاحب التلوين قد يتناقض الشيء

(31) النقشبندي، جامع الأصول، ص 220

(32) الرسالة القشيرية، ص 191.

في حقه عند ظهور صفات نفسه، وتغيب عنه الحقيقة في بعض الأحوال، ويكون ثبوته على مستقر الإيمان وتلوينه في زوائد الأحوال"[33].

فالتلوين إذن صفة أرباب الأحوال والتمكين صفة أهل الحقائق، فالأول منه الابتداء وبالثاني يكون الوصول والمنتهى قال البسطامي في حل الرموز وكشف الكنوز: "الفرق بين التلوين والتمكين أن العبد ما دام في الطريق فهو صاحب تلوين لأنه يرتقي من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف، ويخرج من مرحل إلى مرتع، فإذا وصل تمكن، وإليه أشار من قال:

ما زلت أنزل في دارك منزلا تتحير الألباب دون نزوله"[34].

ويعبر الصوفية عن التردد بين هذين المقامين أيضا بالسكر والصحو، قال التهانوي: "ويتردد السائر بين الصّحو الأوّل المثبت للحدث والسّكر الماحي له، وتسمّى هذه الحالة تلوينا. فإذا استقرّ حال المشاهدة دام محو الحدث وإثبات القدم، وتسمّى هذه الحالة تمكينا لدوام الوجدان. وصاحب السّكر لا يدوم وجدانه بل يجد تارة ويفقد أخرى، ويكون مأسورا تحت تصرّف التلوين. ومناط تلوينه الوجود الذي هو مثار الصّحو الأوّل. والسالك لا يستغني عن السّكر ما لم يخلص عن الصّحو الأوّل، فإذا خلص إلى الصّحو الثاني صار غنيا عن السّكر"[35].

وقد أورد القشيري رحمه الله ضمن رسالته بابا ذكرا فيه بعضا من مشايخ الطريقة وما يعرض لهم من التلوين والتمكين مستدلا بأحوال ومقامات أنبياء الله محمد وموسى ويوسف عليهم الصلاة السلام حيث قال: "وصاحب التلوين أبدا في الزيادة وصاحب التمكين وصل ثم اتصل وأمارة أنه اتصل أنه بالكلية من كليته بطل. وقال بعض المشايخ انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بنفوسهم فإذا ظفروا بنفوسهم فقد وصلوا. قال الأستاذ رحمه الله: "يريد به انخناس أحكام البشرية واستيلاء سلطان الحقيقة فإذا دام للعبد هذه الحالة فهو صاحب تمكين، وكان الشيخ أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: كان موسى عليه السلام صاحب تلوين فرجع من سماع الكلام واحتاج إلى ستر وجهه لأنه أثر فيه الحال، ونبينا صلى الله عليه وسلم كان صاحب تمكين فرجع كما ذهب لأنه لم يؤثر فيه ما شاهده تلك الليلة،

---

(33) السهروردي، عوارق المعارف، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، مطبعة السعادة، القاهرة، د.ت، ص 333.

(34) الشاهوردي البسطامي، حل الرموز وكشف الكنوز، تحقيق: يوسف أحمد، لبنان ناشرون، ص 235، وانظر هذا مفصلا في: القشيري، الرسالة القشيرية، ج1، ص 189، 190.

(35) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون و العلوم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1996 م، ج 1، ص: 962.

وكان يتشهد على هذا بقصة يوسف عليه السلام أن النسوة اللاتي رأين يوسف عليه السلام قطعن أيديهم لما ورد عليهن من شهود يوسف عليه السلام على وجه الفجأة وامرأة العزيز كانت أتم في بلاء يوسف منهن ثم لم تتغير عليها شعرة ذلك اليوم لأنها كانت صاحبة تمكين في حديث يوسف عليه السلام"[36].

فموسى عليه السلام لم يصل إلى مقام التمكين حتى سقطت عنه جميع أسباب التلوين، قال الهجويري رحمه الله: "وقد أمر الحق تعالى موسى صلوات الله عليه بهذا أيضا، إذ لما وصل إلى محل التمكين بقطع المنازل وعبور المقامات، سقطت عنه أسباب التلوين، وقال تعالى: اخلع نعليك، وألق عصاك، لأنها آلة المسافة، آلة المسافة محال في حضرة الوصلة، فبداية المحبة الطلب، وانتهاؤها الاستقرار، والماء يجري مادام في النهر، فإذا وصل إلى البحر استقر، وإذا استقر تغير طعمه، حتى لا يميل إليه كل من يلزمه الماء، ويميل إلى صحبته من تلزم له الجواهر حتى يقول بترك الروح، ويربط على رجليه مثلة الطلب، ويغوص في البحر منكس الرأس، فأما أن يحصل على الجواهر العزيزة المكنونة، وإما أن يسلم روحه لشرك الفناء في طلبها[37].

ومن أوجه الفرق بين التلوين والتمكين أنهما وصفان يشيران إلى حالين في محلين، فحال التلوين في محل دار الملك، وحال التمكين في محل دار الملكوت، وهما عالما الغيب والشهادة، فمن شهد عالم الغيب غاب عن عالم الشهادة، فلم يبق له رجوع إلى ما غاب عنه، فهو متمكن في شهوده غائب عن وجوده[38].

المبحث الخامس: مدح أرباب التلوين والتمكين والإشادة بمقامهم:

لقد وردت في كتب الصوفية العديد من الأشعار في مدح أرباب التلوين والتمكين والإشادة بمقاماتهم وأحوالهم، منها:

الجمع أفقدهم من حيث هم قدما والفرق أوجدهم حينا بلا أثر

فاتت نفوسـهم والفوت فقدهم في شاهد جمعوا فيه عن الـبشر

(36) القشيري، الرسالة القشيرية، ج1، ص 189، 190.

(37) الجهوري، كشف المحجوب، ج2، ص 617.

(38) عز الدين المقدسي، حل الرموز ومفاتيح الكنوز في شرح بعض المصطلحات والمفاهيم الصوفية المبهمة، تحقيق: محمد بوخنيفي، لبنان، دار الكتب العلمية، 2011، ص 108.

وجمعهم عن نعوت الرسم محوهم　　　عما يؤثره التلـــــوين بالــغير

والحين حال تلاشت في قديمهم　　　عن شاهد الجمع إضمار بلا صور

حتى توافى لهم في الفرق ما عطفت　　　عليهم منه حين الوقت في الحضر

فالجمع غيبتهم والفرق حضرتهم　　　والوجد والفقد في هذين بالنظر.[39]

ومنها أيضا:

هبني أراعيك بالأذكار ملتمـــسا　　　ما يبتغيه ذوو التلـــــوين بالغير

فكيف لي بشهود منك يحملن　　　عن فتنة الوقت بل عن حجبة الاثر[40].

خاتمة:

وبالجملة فإن للصوفية مصطلحاتهم ولغتهم الخاصة التي تميزهم عن غيرهم، والمدخل الأول لمعرفة تراث الصوفية والنهل من معينه هو الإحاطة بألفاظهم ومصطلحاتهم؛ لأن تحديد مصطلحات التصوف بما هو تزكية وسلوك وتربية وإحسان يعد الشرط الأساس للنظر في التراث الصوفي نظرة حصيفة موضوعية؛ تنتهي بالباحث إلى الحكم عليه حكما موضوعيا بعيدا عن التجني والمغالاة، والتلوين والتمكين أحد هذه المصطلحات التي تكتسي دلالة خاصة عند الصوفية؛ من خلال ما تلمح إليه من أحوال ومقامات يتقلب فيها الصوفي ليصل إلى مدارج الرقي والكمال.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

ابن العربي، الفتوحات المكية، مج 4، مصر، دار الكتب العربية الكبرى، 1329هـ.

ابن عجيبة، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، تحقيق: عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، بدون تاريخ.

(39) الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 120.

(40) نفسه، ص 144.

ابن منظور، لسان العرب، الطبعة: الثالثة، دار صادر، بيروت، 1414 هـ.

أبو طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الثانية، 1426 هـ/ 2005م.

أبو هلال العسكري، الفروق، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليمان، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة: مصر.

التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت 1996م.

الجرجاني، التعريفات، ضبطه وصححه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، 1403هـ/ 1983م.

الجيلي عبد الكريم، شرح الأسفار عن رسالة الأنوار، طبع ونشر شيخ القادرية، محمد رجب، مشق، مطبعة الفيحاء، 1348هـ.

الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1415هـ/ 1995م.

الراغب، مفردات القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار العلم الدار الشامية، دمشق، 1412 هـ.

رفيق العجم، موسوعات مصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، 1999م.

السراج الطوسي، اللمع، حققه وقدم له، وخرج أحاديثه عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر، 1380هـ/ 1960م.

سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، الحكمة في حدود الكلمة، دار ندرة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1401هـ/ 1981م.

السهروردي، عوارف المعارف، تحقيق: عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، مطبعة السعادة، القاهرة، د.ت.

السيوطي، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، تحقيق: محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب - القاهرة / مصر الطبعة: الأولى، 1424هـ / 2004 م.

الشاهوردي البسطامي، حل الرموز وكشف الكنوز، تحقيق: يوسف أحمد، لبنان، ناشرون.

عز الدين المقدسي، حل الرموز ومفاتيح الكنوز في شرح بعض المصطلحات والمفاهيم الصوفية المبهمة، تحقيق: محمد بوخنيفي، لبنان، دار الكتب العلمية، 2011.

القاشاني، رشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق والأحوال، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

القاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، تحقق وتقديم وتعليق عبد العالي شاهين، دار المنار، الطبعة الأولى، 1413هـ،1992م.

القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة.

الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية – بيروت.

محمد حسن حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (مؤصَّل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها)، مكتبة الآداب – القاهرة الطبعة: الأولى، 2010م.

المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1410هـ/ 1990م.

النقشبندي، جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم وكلمات الصوفية، المطبعة الوهبية، مصر، 1298هـ.

الهجويري، كشف المحجوب، دراسة وترجمة وتعليق: إسعاد عبد الهادي قنديل، مراجعة الترجمة: عبد المجيد بدوي، مراجعة وتقديم: بديع جمعة، القاهرة المجلس الأعلى للثقافة، 1394هـ/ 1974م.